

سؤال النشر في الجزائر

تحديات الحاضر والمستقبل

مقدمة

لا يمكن تفسير ظواهر اليوم بدون العودة إلى الجذور، هذا ينطبق أيضا على معضلات النشر في الجزائر. معضلات تاريخية وإيديولوجية وسياسية أفرزت مشهدا متخما بالتناقضات والطرق الشائكة والتحديات.

يمكن العودة إلى سنة ١٩٤٤ حين أسس شاب اسمه عبد القادر ميموني أول دار نشر جزائرية أطلق عليها اسم دار النهضة، لقد كان تأسيس هذه الدار فعل مقاومة ضد الاستعمار الفرنسي، وعملية تثبت بالوطن كهوية وكحضارة وكنهضة.

لم يتم اختيار كلمة النهضة عبثا، كانت عين المؤسس على المشرق ومحاولة الانخراط في مسار النهضة العربية التي نظر لها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا في بدايات القرن التاسع عشر.

أشهر ميموني وعدد آخر من الناشرين سلاح الكتاب في وجه الاستعمار الفرنسي الذي وضع نصب عينيه هدفا واحدا هو تجريد الجزائريين من هويتهم وإلحاق الجزائر بفرنسا، كما أن الكتاب كان سلاحا ضد الجهل الذي كان يعصف بالجزائريين حينها.

هكذا انخرطت محاولات النشر الأولى كحركة ملتزمة نضالية أسسها مجموعة من الوطنيين الأحرار لتؤكد على جزائرية الجزائر تاريخا وثقافة وهوية. فكان التركيز على مسائل التاريخ والهوية والدين.

لتأتي مرحلة الاستقلال وتغيير الأهداف وتختار الجزائر الانتماء للمعسكر الشرقي فكرا وتسييرا، ويخوض الكتاب مرة أخرى نضالا من نوع آخر ولكن هذه المرة تحت إشراف كامل من أجهزة الدولة. وظهرت الشركة الوطنية للنشر والتوزيع على غرار باقي الشركات الوطنية بتسيير مركزي وتطبيق حرفي لشعارات تلك الحقبة من ثورة زراعية وحزب واحد واشتراكية وغيرها.

احتكرت هذه الشركة توزيع الكتاب واستيراده وسطرت تفاصيل ما يجب أن يقرأه الجزائري وما يجب أن يكتبه ضمن منطوق رقابة صارم.

فكانت لبعض الدور الخاصة أدوار هامشية ومحدودة للغاية وضمن الاتجاه السياسي العام الذي تم فرضه على الجميع، فلم تنشأ حركة نشر بما لهذه الكلمة من معنى، فلا حاجة للتأكيد أن الإبداع وتطوير الفكر والكتابة والنشر يحتاج إلى مناخ حرية لم يكن متوفرا في ذلك الوقت.

إلا أن الأمر الإيجابي هو الدعم المالي الكبير الذي كانت توفره الدولة للكتاب، سواء المحلي أو المستورد. حيث كان الكتاب يباع بسعر رمزي والدولة تتحمل الفرق، وقد خلق هذا الوضع أمرين

- نفور من الكتاب المحلي الذي أصبح مرادفا للشعارات ومروجا لإيديولوجية معينة
- إقبال على الكتاب الأجنبي المستورد والذي تميز بجودة في الطباعة وسعر مقبول

ومع سنة ١٩٨٨ والانتفاضة الشعبية ضد الحزب الواحد وخيارات الدولة الاقتصادية انقلب الوضع رأسا على عقب بالنسبة لقطاع النشر وتوزيع الكتاب

فقد تحرر القطاع من قبضة الدولة وتمت إعادة هيكلة الشركة الوطنية للكتاب وتم التنازل على المكتبات للعمال الذين تم تسريحهم بعد إفلاس الشركة وعدم قدرتها على تسيير أزماتها المالية بعد أن اعتمدت طويلا على الدولة.

بعدها تخلت الدولة عن مهمة الاستيراد وعن دعم الكتاب تحت الضغط المالي وهنا بدأت الشركات الخاصة تطفو إلى السطح أسسها في الغالب موظفون قدماء اكتسبوا خبرة وعلاقات من خلال العمل في الشركة الأم.

لقد كانت هذه اللحظة مواتية لظهور حركة مهمة في مجال الكتاب في وقت كان فيه المجتمع يخرج من مرحلة الأحادية إلى التعددية ومن الانغلاق إلى الانفتاح على العالم الخارجي، إلا أن الأحداث الدموية التي زجت فيها الجزائر أنهت كل محاولات خلق حركة نشر قوية.

بيد أنه وبرغم صعوبة هذه الفترة وقساوتها قاومت دور نشر كثيرة واستمرت وعملت على خلق تقاليد لم تعرفها الجزائر مقارنة بدول عربية أخرى.

وهنا نذكر دورا مهمة مثل القصة للنشر، الشهاب، دار الهدى، دار الحكمة، ... إضافة إلى مؤسسات عمومية مثل ديوان المطبوعات الجامعية والمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وغيرها..

لقد مثلت هذه المرحلة مرحلة الصمود والعمل في ظروف صعبة في حين توقفت أو غادرت دور أخرى لم تتمكن من الاستمرار.

هنا بدأ تاريخ النشر الجزائري الفعلي وبدأت التجارب تتشكل والتيارات تتضح والتحديات تظهر

ولعل أهم ما يميز هذه التجربة الحديثة ما يلي :

- أكثر الدور الجزائرية تعتمد على الكتاب شبه المدرسي وقليلة هي الدور التي تملك خطأ واضحا في النشر ومشروعا ثقافيا واضحا ومنسجما
- يعاني الناشر الجزائريون من منافسة غير عادلة من الكتاب المستورد حيث تطبق الدولة ضرائب ورسوم جمركية مرتفعة على الورق وكل ما يدخل في صناعة الكتاب في حين أن الرسوم والضرائب على الكتاب المستورد أقل بكثير
- المقروئية في الجزائر منقسمة إلى لغتين العربية والفرنسية مما يضع الناشر أمام خيار الإنتاج بلغتين بدل لغة واحدة، والاضطرار إلى ترجمة الأعمال المهمة التي تصدر بلغة ما إلى اللغة الأخرى خصوصا الأعمال التي تتعلق بتاريخ الثورة الجزائرية..
- الجزائر بلد شاسع ويجد الناشر نفسه عاجزا عن الوصول إلى القارئ في غياب شبكة توزيع بعد حل المؤسسة الوطنية للكتاب وعدم تأسيس شركة وطنية مختصة في توزيع الكتاب على غرار شركات توزيع الجرائد
- تراجع عدد مكتبات البيع وتقول إحصائيات سنة ٢٠١٣ إن هناك مكتبة واحدة لكل ٤٠٠ ألف ساكن وهذا رقم يعبر عن أزمة كبيرة في علاقة المجتمع بالكتاب

لقد دفعت كل هذه الصعوبات في سياق استثنائي الناشر الجزائري إلى التكتل ضمن نقابات وجمعيات وممارسة أنواع كثيرة من الضغوط على الدولة لكي تعامل الكتاب كبضاعة مميزة تحتاج إلى دعم خاص من الخزينة وإلى مجموعة من القوانين المشجعة على الاستثمار في مجال النشر والتوزيع والمكتبات.

وبدل البحث عن استراتيجية ثقافية متكاملة تمس جميع حلقات صناعة الكتاب وتشجع على خلق تنمية دائمة للقطاع من خلال إنعاش المكتبات الخاصة وفتح مكتبات عمومية وتكوين أشخاص مؤهلين للعمل في هذا المجال وتحسين مستوى أصحاب المهن المتعلقة بالكتاب وتشجيع الاستثمار في التوزيع وفتح المجال أمام المبادرات الناجحة، بدل كل هذا عمدت الدولة إلى الدعم المباشر للناشر ضمن مناسبات أشبه بالكرنفالات فكانت سنة الجزائر في فرنسا والجزائر عاصمة الثقافة العربية وتلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية وغيرها من التظاهرات فرصة لضخ أموال كبيرة جدا للناشرين عبر الشراء المباشر.

فظاهريا تبدو الدولة حريصة على الكتاب وعلى المطالعة من خلال شراء كميات كبيرة وتوزيعها على المكتبات العمومية ولكن واقعا وفعليا تمت الإساءة كثيرا للنشر الحقيقي فقد خلقت هذه التدابير مئات من الناشرين الطفيليين الذين لا يظهرون إلا في المناسبات ولا يملكون أي مشروع أو تقاليد في هذا المجال.

كما أن المكتبات الخاصة استبعدت وهمشت ولم تعد تشكل الوسيط بين الناشر ومؤسسات الدولة التي تقتني الكتب، فاخفتت أغلب هذه المكتبات وتغير نشاطها وتراجع التوزيع ولم يعد أولوية لدى الناشر الذي أصبح يعتمد على هذه المناسبات للحصول على ريع مباشر دون أن يبذل الكثير من الجهد في اختيار الكتاب أو البحث عن قارئ.

لقد أساءت هذه التدابير إلى المهنة في الوقت الذي كان الهدف منها ترقية النشر وتطوير الكتاب في الجزائر ونسجل اليوم وجود حوالي ٨٠٠ ناشر على السجلات ولكنه وعمليا عدد الناشرين النشطين لا يتجاوز المائة.

تحدي التأليف :

إن أغلب المؤلفين الجزائريين الكبار يفضلون النشر خارج الجزائر بسبب صعوبة تسويق مؤلفاتهم من الجزائر، فالكاتب باللغة العربية يفضل النشر في عواصم الكتاب في المشرق العربي أي بيروت والقاهرة، والكاتب باللغة الفرنسية عادة ما يفضل النشر في باريس حيث يتيح له الشهرة والاهتمام الإعلامي.

تحدي الطباعة :

ما زالت الطباعة في الجزائر تعرف تأخرا لجهة النوعية، ونلاحظ عدم توفر عدد كبير من ماكينات الطباعة الرقمية، كما أنه لا يوجد تجليد فاخر للكتب عدا محاولات بسيطة لا ترقى للنوعية الممتازة التي يتميز بها الكتاب المطبوع في الخارج.

تحدي النشر الإلكتروني

لا توجد سوى تجارب قليلة للنشر الإلكتروني رغم تأكيد المسؤولين في كل مناسبة على أنه مفتاح المستقبل، إلا أن الأمر يبدو صعبا وبعيدا. فلكي نتكلم عن النشر الرقمي عليك أن تخلق سياسة ثقافية منتجة وفعالة تجعل القارئ يبحث عن هذا الكتاب الرقمي ويعمل على شراؤه، كما أن عدم تداول الجزائريين لطريقة الدفع الإلكتروني ما زال عائقا تجاه هذا الشكل الحديث من أشكال القراءة.

تحدي كتاب الطفل

إذا كان الأدب الموجه للطفل يجب أن يكون في صلب أي سياسة كتاب في أي دولة كانت، لأن القراءة في الصغر أساسية ومفصلية فإن الكتاب الجزائري الموجه للطفل لا يعرف أفضل أيامه. فأغلب ما ينشر لا يغري بالقراءة ولا يحتوي على العناصر اللازمة لتسويق الأطفال وإقامة علاقة مثالية بينهم وبين الكتاب. وحتى

محاولات الدولة في دعم هذا الإنتاج أعطت في كثير من الأحيان نتائج عكسية فقد تهافت ناشرون غير مختصين في كتاب الطفل على إنتاج كتب ذات مستوى هزيل سواء لغويا أو من حيث الرسومات وطريقة الإخراج وحتى الأفكار والمضامين.

تحدي الترجمة

إذا كان الجزائر بلدا مزدوج اللغة فإن هذا الواقع التاريخي لا نراه بالشكل اللائق في مجال الترجمة وهذا يعود إلى ارتفاع تكاليف الترجمة مع غياب دعم حكومي خارج المناسبات، فلا يوجد صندوق مالي لدعم الترجمة لا على مستوى وزارة الثقافة ولا على مستوى وزارة التعليم العالي والمحاولات هنا وهناك فردية تتم بجهود شخصية أو بجهود دور نشر مؤمنة بأهمية الترجمة في خلق جسور التواصل بين الثقافات والحضارات.

تحدي التعاون العربي والمغربي :

يظهر كل سنة الصالون الدولي للكتاب مدى توق الجزائريين للاطلاع على الكتاب الصادر في دول الجوار ومع هذا فإن التعاون بين الناشر الجزائري والعربي عموما والمغربي خصوصا ضعيف ولا يرقى إلى ما يجب أن يكون خصوصا في ظل مشاكل حركة الكتاب من بلد إلى آخر، حيث يفترض أن يكون النشر المشترك حلا مثاليا لكثير من العراقيل البيروقراطية والجمركية في وجه التبادل بين دول تقسم نفس اللغة ونفس الهواجس ونفس المصير.

تحدي الإعلام الثقافي

يتميز المشهد الإعلامي بطغيان السياسي والرياضي. وقد ظهرت محاولات جادة لخلق فضاء ثقافي سواء في أجهزة الإعلام الثقيلة أو الصحافة المكتوبة ولكنها سرعان ما توقفت أمام غياب الدعم المالي. واليوم نجد أنفسنا ونحن ٤٠ مليون جزائري لا نملك مجلة ثقافية واحدة أو ملحقا ثقافيا حقيقيا وقد أثر هذا كثيرا على عمليات الترويج للكتاب أو نشر القراءات النقدية لمختلف الإصدارات التي تحتاج للمتابعة ولتعريف الجمهور بها.

أسئلة المستقبل :

تبقى تجربة النشر في الجزائر تجربة حديثة ظهرت في ظروف استثنائية وتحت نظام ما زال محتفظا بأجهزته البيروقراطية، يرفض أن يضع الكتاب في خانة السلعة المتميزة التي لا تنطبق عليها قوانين باقي السلع.

ولذا فإن نشاط النشر في الجزائر هو من قبيل المقاومة كما كان في فترة الاستعمار الفرنسي. مقاومة ضد الجهل واللاتقافة وتنفيه المجتمع. إنه نضال يومي ضد القوانين التي ترفض فكرة الاستثناء وضد واقع يهمل القراءة والكتاب يوما بعد يوم.

ولا شك أن المستقبل سيكون لصالح الذين رفضوا الاستسلام وبقوا أوفياء لمهنة صعبة جدا من أجل مجتمع يقبل على وسائل المعرفة ويرفض الخضوع لمنطق الجهل والانغلاق.